مختصر
الرحيق المختوم

بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

نسخة مختصرة ومنقحة

اختصره

الشيخ صفي الرحمن المباركفوري

مؤلف كتاب الرحيق المختوم

الطبعة الثانية

١٤٣٢ - ٢٠١١

مختصر البحث الفائز بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

العرب قبل الإسلام

في القرن السادس الميلادي كانت الدنيا غارقة في ظلمات من الجهل والضلال والبوار، وكان للعرب من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأوفى، فمن الناحية الدينية كان عامتهم مشركين، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] بل تمادوا في هذا المعنى إلى أنهم كانوا يعبدون الحجر، فإذا وجدوا حجرا هو خير منه ألقوا ذلك الحجر، وأخذوا الآخر، فإذا لم يجدوا حجرًا جمعوا جثوة من تراب، ثم جاءوا بالشاة فحلبوها عليه، ثم طافوا به[1].

وكانوا بجانب ذلك يحملون أنواعا من الأوهام والخرافات، من ذلك أنهم كانوا يستقسمون بالأزلام، والزلم: القدح الذي لا ريش له، فكانوا يختارون من هذا النوع ثلاثة أسهم، يكتبون على واحد منها (نعم) وعلى الثاني (لا) ويتركون الثالث غفلا، فإذا أرادوا عملا من نحو السفر والنكاح وأمثالهما استقسموا بها، فإن خرج (نعم) عملوا به وإن خرج (لا) أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، وإن طلع غفل أعادوا الضرب حتى يخرج واحد من الأولين. وكانت لهم أزلام فيها المياه والعقول والديات والأنساب وغير ذلك.

وكانت للكهنة والعرافين والمنجمين فيهم جولة وصولة، فقد كانوا يتحاكمون

(١) روى ذلك البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي، انظر الحديث رقم (٤٣٧٦).

إليهم في أمور دينهم، وفي كثير من أمور دنياهم، ويستسلمون لهم أيّما استسلام، وقد كان هؤلاء الكهنة والعرافون والمنجمون يتعاطون الأخبار عن الكوائن في المستقبل، ويدعون معرفة الأسرار ومنهم من يزعم أن له تابعًا من الجن يلقى إليه الأخبار، والمنجم كان يدعى معرفة حوادث المستقبل بحساب سير النجوم.

وكانت فيهم الطيرة - بكسر ففتح - وهى التشاؤم بالشيء، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا، وعدوه حسنا، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك، وتشاءموا، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم.

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور، والحيوانات، والدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، وهى أنهم كانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة، أي بومة تطير في الفلوات، وتقول: صدى صدى، أو اسقوني اسقوني. فإذا أخذ بثأره سكن واستراح.

كانت العرب بجانب هذه الأوهام والخرافات قائمين ببعض ما ورثوه من دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، مثل تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة وإهداء البدن، ولكنهم كانوا قد أحدثوا في ذلك بدعات، وخلطوه بأنواع من الخرافات.

وكان لليهودية والنصرانية أيضا دور في سكان جزيرة العرب، فقد وجدت من اليهود عدة قبائل في المدينة المنورة، وخيبر، وتيماء، ووادي القرى، وفدك وغيرها، وقد دانت طائفة من أهل اليمن باليهودية. وهم الذين حرقوا نصارى نجران في الأخدود إذ لم يعتنقوا ديانتهم.

أما النصرانية فكان لها أهل وأتباع في نجران، وكانوا يتألفون من مائة ألف مقاتل كلهم على هذا الدين. وقد انتشرت النصرانية في عامة مناطق اليمن أيضا بواسطة الأحباش، وكانت العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيء وغيرهما من العرب المجاورين للرومان أيضا اعتنقوا النصرانية واختاروها دينا لهم.

وكانت هذه هي أكبر ديانات العرب قبل الإسلام، ووجد شيء من المجوسية

والصابئية أيضًا، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوار، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق. وكثرت فيهم المعاصي، ونشأ فيهم على توالي الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليد تجري مجرى الخرافات الدينية، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيرًا بالغًا جدًا.

أما اليهودية فقد انقلبت رياء وتحكّمًا، وصار رؤساؤها أربابًا من دون الله، يتحكمون في الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة، وإن ضاع الدين، وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التي حض الله عليها، وأمر كل فرد بتقديسها.

وأما النصرانية فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي، لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها.

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.

أما من الناحية السياسية فقد كانت اليمن تحت احتلال الأحباش ثم الفرس، وكانت الحيرة وما حولها من شرق العرب تابعة للفرس منذ أمد بعيد، وأما مشارف الشام وما يجاورها فكان يحكمها آل غسان، وكانوا تابعين للرومان، وأما بقية العرب فكانت مقسمة بين القبائل، وكان يحكم كل قبيلة فيها رئيس مستقل، له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لأي دكتاتور قومي، حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله فيما غضب.

أما أحوال هذه المناطق وسكانها فالأقطار الثلاثة التي كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية في تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه. فقد كان الناس بين سادة وعبيد، أو حكام ومحكومين، فالسادة- ولا سيما الأجانب - كان لهم كل الغنم، والعبيد عليهم كل الغرم، وبعبارة أوضح أن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات، والحكومات كانت تستخدمها في ملذاتها وشهواتها،

ورغائبها، وجورها، وعدوانها. أما الناس فكانوا في عمايتهم يتخبطون، والظلم ينحط عليهم من كل جانب، وما في استطاعتهم التذمر والشكوى، بل كانوا يسامون الخسف، والجور، والعذاب ألوانًا ساكتين، فقد كان الحكم استبداديا، والحقوق ضائعة مهدورة.

وأما القبائل المجاورة لهذه الأقطار فكانوا مذبذبين تتقاذفهم الأهواء والأغراض، مرة يدخلون في أهل العراق، ومرة يدخلون في أهل الشام.

وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم، أو مرجع يرجعون إليه، ويعتمدون عليه وقت الشدائد.

وأما من الناحية الاجتماعية فبينما كانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم كانت في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين المرأة والرجل لا نستطيع أن نعبر عنها إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة، روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها.

أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء؛ فنكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح [يسمى] نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت، ووضعت ومرت ليالي بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، [فـ] تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان: [فـ] تسمي من أحبت [منهم] باسمه، فيلحق به ولدها. لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل، ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير

فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات، تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطه به، ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث [الله] محمدًا ﷺ بالحق هدم نكاح [أهل] الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم[1].

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب في حروب القبائل يسبي نساء المقهور فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم.

وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط، لا نستطيع أن نخص منها وسطًا دون وسط، أو صنفًا دون صنف، إلا أفرادًا من الرجال والنساء ممن كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقوع في هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالاً من الإماء، والطامة الكبرى هي الإماء، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل فقال: يا رسول الله إن فلانًا ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «لا دعوة في الإسلام. ذهب أمر الجاهلية. الولد للفراش وللعاهر الحجر»[2].

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى، فمنهم من يقول:

إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق [القرآن: الأنعام: ١٥١، النحل: ٥٨-٥٩، الإسراء: ٣١، التكوير: ٨].

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيرًا ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان

---

(١) صحيح البخاري ح ٥١٢٧، وسنن أبي داود: كتاب النكاح، باب وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية. وما بين المعكوفين من سنن أبي داود.

(٢) أبو داود: باب الولد للفراش. ومسند أحمد ٢/ ٢٠٧.

يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعبس وذبيان، وبكر وتغلب وغيرها.

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تمامًا. وكانت قواهم متفانية في الحروب، إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها. وأحيانًا كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعونًا لهم على حياتهم وحصول معايشهم.

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية، فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصولة، والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانا، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجُل همتها ملؤ الخزائن من رعيتها أو جر الحروب على مناوئيها.

أما الحالة الاقتصادية، فتبعت الحالة الاجتماعية، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معايش العرب. فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذاك مفقودًا في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذي المجاز ومجنة وغيرها.

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام، نعم كان في داخل الجزيرة شيء من الزراعة، والحرث، واقتناء الأنعام، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب، وكان الفقر والجوع والعرى عامًا في المجتمع.

هذا، وكانوا يتمتعون بجنب كل ما مضى ببعض الأخلاق الفاضلة التي يقل وجودها في البشر مثل الجود والكرم، والوفاء بالعهد، وعزة النفس والمضى في العزائم، والإباء عن قبول الخسف والضيم، والحلم والأناة والتؤدة والصدق والأمانة، والبعد عن لوثات الحضارة ومكائد الحاضرين من الخداع والكذب والغدر

إلا أنهم لم يكونوا يعرفون سبلا عزيزة يصرفون هذه الأخلاق فيها.

والحاصل أنهم كانوا يعبدون الأصنام، غارقين في الأوهام. متمسكين بالخرافات، يرزحون تحت نير الظلم والعدوان، متحاربين متناحرين، متبعثرين متفانين يأكلون الميتة ويشربون الخمور، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويسيئون الجوار، ويأكل منهم القوى الضعيف، وتعمهم التعاسة والبوار، ولا يدرون طريق السعادة والفلاح مع تمتعهم ببعض الأخلاق الفاضلة، فكانوا في أقصى حاجة إلى من يأخذ بأيديهم إلى هذا السبيل، فبعث الله محمدًا ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاوة إلى السعادة، فقام بذلك حتى عدل خط التأريخ وغير مجرى الحياة، وليست الصفحات القادمة إلا صورة مصغرة جدا مما بذل من الجهود. وما لاقى من العناء، وما حصل عليه من النتائج المحمودة المشرفة.

وما توفيقي إلا بالله، وهو حسبي ونعم الوكيل.

* * *

نسب النبي ﷺ، وأسرته

نسب النبي ﷺ:

هو أفضل خلق الله وأكرمهم عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وعدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بالاتفاق، ولكن لم يعرف بالضبط عدد ولا أسماء من بين عدنان وإسماعيل عليه السلام.

وفهر بن مالك- وقيل: النضر بن كنانة- هو الملقب بقريش: ونسبة إليه تعرف ذريته بقبيلة قريش، وهي قبيلة مشهود لها بالشرف، ورفعة الشأن، والمجد الأصيل، وقداسة المكان بين سائر العرب.

وكانت هذه القبيلة متفرقة في أطراف مكة: حتى جاء قصي بن كلاب، فتولى الكعبة، وجمع قريشا فأسكنها في مكة، ومعنى تولى الكعبة أنه كانت إليه حجابتها وسدانتها، فكان بيده مفتاح الكعبة يفتحها لمن شاء، ومتى شاء، وقد أنشأ قصي أيضا السقاية والرفادة. والسقاية: ماء عذب من نبيذ التمر أو العسل أو الزبيب ونحوه، كان يعده في حياض من الأديم يشربه الحجاج، والرفادة: طعام كان يصنع لهم في الموسم. وقد بنى قصي بشمالي الكعبة بيتا عرف بدار الندوة، وهي دار شورى قريش، ومركز تحركاتهم الاجتماعية، فكان لا يعقد ولا يتم أمر إلا في هذه الدار، وكان بيده اللواء والقيادة فلا تعقد راية حرب إلا بيده. وكان كريما وافر العقل، صاحب كلمة نافذة في قومه.

الأسرة النبوية:

١- هاشم- تعرف أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية- نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف- وكان هاشم هو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف بن قصي، وكان موسرا ذا شرف كبير، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وكان اسمه عمرو فما

سمي هاشمًا إلا لهشمه الخبز، وهو أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، وفيه يقول الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف[١].

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجرًا، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدى بن النجار، وأقام عندها، ثم خرج إلى الشام- وهي عند أهلها حملت بعبد المطلب- فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧م، وسمته شيبة لشيبة كانت في رأسه[٢] وجعلت تربيه في بيت أبيها في يثرب، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة.

٢ - عبد المطلب- ولما صار شيبة- عبد المطلب- وصيفًا أو فوق ذلك ابن سبع سنين أو ثمان سنين سمع به المطلب فرحل في طلبه، فلما رآه فاضت عيناه، وضمه، وأردفه على راحلته، فامتنع حتى تأذن له أمه، فسألها المطلب أن ترسله معه، فامتنعت فقال: إنما يمضي إلى ملك أبيه، وإلى حرم الله، فأذنت له، فقدم به مكة مردفه على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب، فقال ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم، فأقام عنده حتى ترعرع، ثم إن المطلب هلك بردان من أرض اليمن، وكان هو الوارث لمناصب هاشم، فولى بعده عبد المطلب، فأقام لقومه ما كان أباؤه يقيمون، وشرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم[٣].

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان: حفر بئر زمزم، ووقعة الفيل. وخلاصة الأول أنه أمر في المنام بحفر زمزم، ووصف له موضعها، فقام يحفر، فوجد فيه الأشياء التي دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء، أي السيوف والدروع والغزالين من الذهب، فضرب الأسياف بابًا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين صفائح من ذهب، وأقام سقاية زمزم للحجاج.

---

(١) ابن هشام ١/ ١٥٧ مع الروض الأنف، وفيه الإيلاف بدل الأصياف.
(٢) ابن هشام ١/ ١٣٧.
(٣) ابن هشام ١/ ١٣٧، ١٣٨ وتعيين السنين من تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٧.

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب، وقالوا له: أشركنا. قال ما أنا بفاعل، هذا أمر خصصت به، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بني سعد هذيم، وكانت بأشراف الشام، فلما كانوا في الطريق، ونفد الماء سقى الله عبد المطلب مطرًا، ولم ينزل عليهم قطرة، فعرفوا تخصيص عبد المطلب بزمزم ورجعوا، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة[١].

وخلاصة الثاني أن أبرهة بن الصباح الحبشي، النائب العام عن النجاشي على اليمن، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، وسمع بذلك رجل من بني كنانة؛ فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعذرة. ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش عرمرم- عدده ستون ألف جندي- إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه فيلا من أكبر الفيلة، وكان في الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلا، وواصل سيره حتى بلغ المغمس، وهناك عبأ جيشه، وهيأ فيله، وتهيأ لدخول مكة. فلما كان في وادي محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبينما هم كذلك، إذ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول. وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص لا تصيب منهم أحدًا إلا صارت تتقطع أعضاؤه، وهلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض، فتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل منهل، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره على قلبه ثم هلك.

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب، وتحرزوا في رءوس الجبال، خوفًا على أنفسهم من معرة الجيش، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين[٢].

---

(١) ابن هشام ١/ ١٤٢- ١٤٧

(٢) ابن هشام ١/ ٤٣ إلى ٥٦ وتفسير سورة الفيل من كتب التفاسير

وكانت هذه الوقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يومًا أو بخمسة وخمسين يومًا- عند الأكثر - وهو يطابق أواخر أو أوائل مارس سنة ٥٧١م، وكانت تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته، لأنا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله استولوا على هذه القبلة مرتين بينما كان أهلها مسلمين، كما وقع لبختنصر سنة ٥٨٧ق.م، والرومان سنة ٧٠م، ولكن لم يتم استيلاء نصارى الحبشة على الكعبة، وهم المسلمون إذ ذاك، وأهل الكعبة كانوا مشركين وهذا يعني أن الله اصطفى هذا البيت للتقديس. ولا يأتي هذا التقديس إلا بقيام نبي من أهله.

٣ - عبد الله والد رسول الله ﷺ- أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، فقيل: إنه أقرع بينهم أيهم ينحر؟ فطارت القرعة على عبد الله، وكان أحب الناس إليه: اللّهم هو أو مائة من الإبل. ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل[1] وقيل: إنه كتب أسماءهم في القداح، وأعطاها قيم هبل، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب، وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش، ولا سيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبو طالب، فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشرًا من الإبل حتى يرضى ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها، فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله، فلم يزل يزيد من الإبل عشرًا عشرًا ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت مائة فوقعت عليها، فنحرت ثم تركت، لا يرد عنها إنسان ولا سبع، وكانت الدية في قريش وفي العرب عشرًا من الإبل، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل، وأقرها الإسلام، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» يعني

(١) تاريخ الطبري ٢/٢٣٩.

إسماعيل، وأباه عبد الله[١].

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، وأبوها سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه بها، فبنى بها عبد الله في مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرًا، فمات بها، وقيل: بل خرج تاجرًا إلى الشام، فأقبل في عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها، ودفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل: بل توفي بعد مولده بشهرين أو أكثر[٢]. ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي، قالت:

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم ... وجاور لحدا خارجًا في الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره ... تعاوره أصحابه في التزاحم
فإن تك غالته المنايا وريبها ... فقد كان معطاء كثير التراحم[٣]

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن، وهي حاضنة رسول الله ﷺ[٤].

* * *

(١) ابن هشام ١/ ١٥١ إلى ١٥٥، تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٠- ٢٤٣ .
(٢) ابن هشام ١/ ١٥٦، ١٥٨، تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٦ والروض الأنف ١/ ١٨٤ .
(٣) طبقات ابن سعد ١/ ١٠٠ .
(٤) صحيح مسلم ح ١٧٧١ (٣/ ١٣٩٢)، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ .

المولد وأربعون عامًا قبل النبوة

المولد:

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل[١]، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان ويوافق ذلك العشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري رحمه الله[٢].

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام. وروى أحمد والدارمي وغيرهما قريبًا من ذلك[٣].

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشرًا ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له[٤]. واختار له اسم محمد- وهذا الاسم لم يكن معروفًا في العرب- وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون[٥].

وأول من أرضعته من المراضع- وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع[٦]- ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي[٧].

---

(١) انظر نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام ص ٢٨- ٣٥ لمحمود باشا الفلكي ط: بيروت.

(٢) ٢٠ إبريل حسب التقوم الميلادي القديم و ٢٢ أبريل حسب التقويم الجديد، وللتفصيل انظر رحمة للعالمين ١/ ٣٨، ٣٩، ٢/ ٣٦٠، ٣٦١.

(٣) مسند أحمد ٤/ ١٢٧، ١٢٨، ١٨٥، ٥/ ٢٦٢، سنن الدارمي ١/ ٩، وابن سعد ١/ ١٠٢.

(٤) ابن هشام ١/ ١٥٩، ١٦٠، تاريخ الطبري ٢/ ١٥٦، ١٥٧، وابن سعد ١/ ١٠٣.

(٥) يقال: إنه ولد مختونًا، (تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤) وقال ابن القيم: ليس فيه حديث ثابت. (انظر زاد المعاد ١/ ١٨).

(٦) اتحاف الورى ١/ ٥٧.

(٧) صحيح البخاري ح ٢٦٤٥، ٥١٠٠، ٥١٠١، ٥١٠٦، ٥١٠٧، ٥٣٧٢، وتاريخ الطبري ٢/ ١٥٨ وفي سنده مقال، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ١٥٧.

في بني سعد:

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعادًا لهم عن أمراض الحواضر، لتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر- وهي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث- وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة، من نفس القبيلة.

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهي الشيماء- لقب غلب على اسمها-) وكانت تحضن رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ.

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعًا في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يومًا وهو عند أمه حليمة، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من وجهين، من جهة ثويبة، ومن جهة السعدية[1].

ورأت حليمة من بركته ﷺ ما قضت منه العجب، وملخص ما روي في ذلك:

أن حليمة لما جاءت إلى مكة كانت الأيام أيام جدب وقحط، وكانت معها أتان كانت أبطأ دابة في الركب مشيا، لأجل الضعف والهزال، وكانت معها ناقة لا تدر بقطرة من لبن، وكان لها ولد صغير يبكي ويصرخ طول الليل لأجل الجوع، لا ينام ولا يترك أبويه ينامان.

فلما جاءت حليمة بالنبي ﷺ إلى رحلها، ووضعته في حجرها أقبل عليه ثدياها بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه ابنها الصغير حتى روي، ثم ناما.

وقام زوجها إلى الناقة فوجدها حافلا باللبن، فحلب منها ما انتهيا بشربه ريًّا وشبعا، ثم باتا بخير ليلة.

ولما خرجا راجعين إلى بادية بني سعد ركبت حليمة تلك الأتان، وحملت معها النبي ﷺ فأسرعت الأتان، حتى قطعت بالركب، ولم يستطع لحوقها شيء من الحمر.

ولما قدما في ديارهما- ديار بني سعد: وكانت أجدب أرض الله- كانت غنمهما

(١) زاد المعاد ١/ ٩١

تروح عليهما شباعا ممتلئة الخواصر بالعلف، وممتلئة الضروع باللبن، فكانا يحلبان ويشربان، وما يحلب إنسان قطرة لبن.

فلم يزالا يعرفان من الله الزيادة والخير حتى اكتملت مدة الرضاعة، ومضت سنتان ففطمته حليمة، وقد اشتد وقوى في هذه الفترة.

وكانت حليمة تأتي بالنبي ﷺ إلى أمه وأسرته كل ستة أشهر، ثم ترجع به إلى باديتها في بني سعد، فلما اكتملت مدة الرضاعة وفطمته جاءت به إلى أمه. قالت حليمة: ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا[١].

شق الصدر:

وهكذا رجع رسول الله ﷺ إلى بني سعد، حتى إذا كان بعده بأشهر على قول ابن إسحاق[٢] وفي السنة الرابعة من مولده على قول المحققين[٣] وقع حادث شق صدره، روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه- أي جمعه وضم بعضه إلى بعض - ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه- يعني ظئره[٤]- فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون- أي متغير اللون- قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[٥].

---

(١) ابن هشام ١/ ١٦٢-١٦٤، تاريخ الطبري ٢/ ١٥٨، ١٥٩، ابن حبان (الإحسان) ٨/ ٨٢-٨٤ وابن سعد ١/ ١١١ كلهم من طريق ابن إسحاق مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٦٤، ١٦٥، تاريخ الطبري ٢/ ١٦٠.

(٣) انظر ابن سعد ١/ ١١٢ ومروج الذهب للمسعودي ٢/ ٢٨١، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ١٦١، ١٦٢، وعنده على قول ابن عباس كان في السنة الخامسة ١/ ١٦٢ وقول ابن إسحاق شبه متناقض لأن رعي الغنم لا يتصور من صبي لم يكمل من عمره إلا سنتين. ولا يزال في بداية الثالثة.

(٤) الظئر هي المرضعة، وربما يطلق على زوجها أيضًا.

(٥) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء ١/ ١٤٧ ح ٢٦١.

إلى أمه الحنون:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة حتى ردته إلى أمه، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين.

ورأت آمنة أن تزور قبر زوجها بيثرب، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ نحو خمسمائة كيلو مترًا ومعها ولدها اليتيم- محمد ﷺ- وخادمتها أم أيمن، وقيمها عبد المطلب، فمكثت شهرًا ثم قفلت، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض في أوائل الطريق، ثم اشتد حتى ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة[1].

إلى جده العطوف:

وعاد به عبد المطلب إلى مكة، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم الذي أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة، بل يؤثره على أولاده، قال ابن هشام: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأنًا، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع[2].

ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفي جده عبد المطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه[3].

إلى عمه الشفيق:

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده، وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله، وستأتي نبذ من ذلك في مواضعها.

---

(١) لينظر: ابن هشام ١/ ١٦٨، وتلقيح الفهوم ص٧.

(٢) ابن هشام ١/ ١٦٨.

(٣) ابن هشام ١/ ١٦٩ وتلقيح الفهوم ص ٧.

يستسقى الغمام بوجهه :

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب! أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام، كأنه شمس دجن، تجلت عنه سحابة قتماء، حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبعه الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي. وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[1].

بحيرى الراهب :

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة- قيل وشهرين وعشرة أيام[2]-ارتحل به أبو طالب تاجرًا إلى الشام، حتى وصل إلى بصري- وهي معدودة من الشام، وقصبة لحوران، وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان- وكان في هذا البلد راهب عرف ببحيرى، واسمه- فيما يقال- جرجيس فلما نزل الركب خرج إليهم، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك، فجعل يتخللّهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، وقال: «هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين». فقال له [أبو طالب] (و) أشياخ قريش: [و] ما علمك [بذلك]؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، [وإنا نجده في كتبنا]، ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب أن يرده، ولا يقدم به إلى الشام، خوفًا عليه من الروم واليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة[3].

---

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص١٥، ١٦، وأورد الهيثمي في مجمع الزوائد عن الطبراني مثل هذه القصة في كتاب علامات النبوة ٨/ ٢٢٢ .

(٢) قاله ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧ .

(٣) ينظر جامع الترمذي ٥/ ٥٥٠، ٥٥١ ح ٣٦٢٠ وتاريخ الطبري ٢/ ٢٧٨، ٢٨٩، والمصنف لابن أبي .....=

حرب الفجار:

وفي السنة العشرين من عمره ﷺ وقعت في سوق عكاظ حرب بين قريش- ومعهم كنانة- وبين قيس عيلان، تعرف بحرب الفجار[١] وسببها أن أحد بني كنانة، واسمه البراض، اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب ابن أمية لمكانته فيهم سنا وشرفًا، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس. ثم تداعي بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد. فاصطلحوا على ذلك، ووضعوا الحرب، وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر. وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان ينبل على عمومته، أي يجهز لهم النبل للرمي[٢].

حلف الفضول:

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام، تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة من كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي، لسنه وشرفه،

=شيبة ١١/ ٤٨٩ ح ١١٧٨٢، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٤، ٢٥، ولأبي نعيم ١/ ١٧٠ وإسناده ثابت قوي، ووقع في آخره أن أبا بكر بعث معه ﷺ بلالاً. وهو من الغلط الواضح، فإن بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجودًا، وإن كان موجودًا فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر. قاله ابن القيم في زاد المعاد ١/ ١٧، وقد روي في القصة تفاصيل أخرى: رواها ابن سعد في الطبقات (١/ ١٢٠) بأسانيد واهية، وذكرها ابن إسحاق بدون إسناد، حكاها عنه ابن هشام ١/ ١٨٠ -١٨٣، والطبري ٢/ ٢٧٧، والبيهقي وأبو نعيم.

(١) والفجارات (بكسر الفاء) بين هذين الفريقين أربعة، الثلاثة الأول منها كان فيها خصام واشتجار طفيف ثم اصطلحوا بدون قتال، فالأول سببه عاطلة دين كان لقيسي على كناني، والثاني سببه تفاخر كناني في سوق عكاظ، والثالث سببه تعرض فتيان مكة لامرأة جميلة من قيس، أما الرابع فهو فجار البراض الذي ذكرناه في الكتاب، ولينظر للتفصيل «المنمق في أخبار قريش» ص ١٦٠-١٦٤ والكامل لابن الأثير ١/ ٤٦٧، وهو جعل الثلاثة الأول واحدًا.

(٢) ابن هشام ١/ ١٨٤-١٨٧، والمنمق في أخبار قريش ص ١٦٤-. ١٨٥ والكامل لابن الأثير ١/ ٤٦٨-٤٧٢، قالوا: كانت في شوال، ولا يصح، لأن شهر شوال ليس بالشهر الحرام. وعكاظ خارج عن الحرم، فما هي الحرمة التي انتهكت؟ على أن سوق عكاظ كان يقام من بداية ذي القعدة.